فضل الجبال
تأملات في قدرة الخالق

د. صالح عبدالله محمد قرقز
جامعة الجوف: المملكة العربية السعودية

فضل الجبال تأملات في قدرة الخالق

د. صالح عبدالله محمد قرقز
جامعة الجوف: المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث:

الحمد لله الذي هدانا لهذا الدين، وخاطبنا بلسان عربي مبين، الحمد لله أن ضرب لنا من أنفسنا وبيئتنا أمثالاً نعرفها. والصلاة والسلام على من زُيّن بمكارم الأخلاق، وأُحيط بالعصمة من الخطأ والنفاق، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه وبعد.

من فضل الله سبحانه وتعالى علينا، أن اصطفى من الأمة نبياً عربياً، يُشهدّ له بالصدق والأمانة، فكان الأعز والأقرب إلى ربه. أنزل إليه الوحي محملاً بأعظم دستور عرفته البشرية، إنه(القرآن الكريم) الذي لا تنضب معانيه، ولا يُفتِرُها التقادم. فهو القديم الحديث، يصلح لكل زمان ومكان، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا استوفاها حقها. كل كلمة فيه تنبض بالحياة، وكل آية تموج بالمعرفة. يتعايش مع الحاضر بما يناسبه، ويفتح الآفاق لمستقبل لا تدركه العقول، فسبحان القائل: ((ووُضِعَ الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا

يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصها وَوَجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلِم ربُّك أحدا)) (سورة الكهف49).

ومن يتدبر القرآن الكريم، يجد فيضاً من المعاني لا زالت بحاجة إلى الغوص والإبحار للكشف عن مكنوناتها. ومنها على سبيل المثال لا الحصر، تلك الآيات التي تعرض للحديث عن الجبال. حيث ورد ذكرها في القرآن ثلاث وثلاثين مرة[1]، واستوقفتني معانيها الغزيرة، والمقامات التي وردت بها. تُحلق بقارئها بين الدنيا والآخرة، وتضع بين يديه معالم القوة والضعف، وتُخيرُه بين التمرد والانصياع.

وأياً كان المقام، فلا شك أنها تصب في تهذيب السلوك الإنساني، وتُعينه على معرفة حقيقة الكون وخالقه، وتضع الإنسان في ميزانه الذاتي الذي لا بد أن يرجع إليه في خلوة مع نفسه.

ومن يتنقل بين هذه الآيات، يجد أنها تُحلق بخياله ليقف على أهوال يوم القيامة الذي لا مفر منه. فتعينه على الإيمان بيوم البعث تارةً، وتنقله لتضع بين يديه القدرة الإلهية في عظائم الأمور تارة أخرى. ثم تجعله يتأمل نعم الله التي لا تُحصى، فلنتأمل ما في الجبال من نعم كثيرة.

من أجل ذلك جاء هذا البحث في مقدمة وثلاثة مباحث على النحو التالي:

المقدمة: وفيها حددت موضوع البحث ومسوغاته.

[1] - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ محمد فؤاد /مادة/ج ب ل.

المبحث الأول: فضل الجبال في مجال التوسعة على المخلوقات.

المبحث الثاني: التهذيب السلوكي للإنسان.

المبحث الثالث: التمتع والاستفادة مما تشتمل عليه الجبال من نعم.

الخاتمة: وفيها أبرز ما توصل إليه البحث من نتائج تعود بالفائدة على قارئه، وتأخذ بيده لزيارة تلك الشواهد القرآنية والتأمل بها.

وفي هذا المقام لا يفوتنا أن نقدِّر جهود العلماء والمفسرين المبذولة في الكشف عن المعاني المستفادة من آيات القرآن الكريم. فجهودهم تستحق الاحترام والتقدير، ولكنها لا تعني الوقوف عندها والاستسلام أمامها، بل يجدر بنا أن نتخذ منها مرتكزاً في تفكيرنا وتأملنا بتلك الآيات الكريمة، وذلك امتثالاً لكثير من النصوص القرآنية التي تدعونا إلى مواصلة التفكير والتدبر والبحث لقوله سبحانه(أفلا يتفكرون...! أفلا يعقلون...!). فلنتأمل ولنتدبر معجزات القرآن التي لا يزال الكثير منها بحاجة إلى من يكشف عن مكنوناتها وخباياها ومقاصدها، مما يعود بالفائدة على البشرية، وربما يكون سبباً في إقناع المشككين والمنكرين.

(سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) (البقرة32).

الباحث د. صالح عبدالله قرقز

المبحث الأول

فضل الجبال في التوسعة على المخلوقات

إن في خلق الجبال نعمة من نعم الله الكثيرة التي لا تحصى، ولها فوائد وحكم جمة، منها ما ندركها، ومنها ما لا يدركها العقل الإنساني.

وفي هذا المبحث، سنحاول الوقوف عند بعض الفوائد الدنيوية التي يمكننا استنتاجها من سياق الآيات القرآنية الكريمة التي يرد فيها ذكر الجبال.

من هذه الفوائد ما هو واضح في نص الآيات، كالخيرات التي توجد في الجبال، والمنعة والحماية للإنسان...وغيرها. ومنها ما هو خفي يمكننا إدراكه بالتأمل والتدبر لهذه الآيات، كزيادة مسطح الكرة الأرضية، من أجل التوسعة على المخلوقات، وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

ولا شك أن تلك المعاني الخفية تعد من الإعجاز القرآني الذي أراده المولى عز وجل. فمنذ أكثر من ألف رأربعمائة عام ولا زلنا نستمد من القرآن ما هو حديد. فما في القرآن الكريم من إشارات إلى ما في السموات وما في الأرض، تُمدُّ المتأمل بالكثير من المكتشفات العلمية التي لا زالت بحاجة إلى من يكشف عن جمالها، امتثالاً لقوله تعالى: ((ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين.)). (الروم:22).

فمن آياته الدالة على كمال قدرته وحكمته، خلق السماوات الواسعة، وما تشتمل عليه من غموض ومخلوقات. وخلق الأرض بما تشتمل عليه من أسرار، منها ما نعرفه ومنها ما زال

بحاجة إلى البحث عنه. إضافة إلى القدرة الربانية في اختلاف اللغات والألوان البشرية. كل ذلك فيه من الآيات والعبر لأصحاب العلم والمعرفة الذين يعكفون على آيات الله يتدبرونها[1].

فالجبال من مخلوقات الله في الأرض، وله في خلقها حكم وفوائد كثيرة، يمكننا التعرف على بعضها من خلال تدبر تلك الآيات .

زيادة مساحة الأرض للتوسعة على المخلوقات.

خلق الله سبحانه وتعالى آدم، وهو يعلم كم سينحدر من نسله من بشر، ومن أجله خلق الكثير من المخلوقات، وسخرها لخدمته، وأفاده من خيراتها ومنتجاتها.

((والأنعامَ خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافعُ ومنها تأكلون)) (النحل:5). ويقول سبحانه:

((وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفسِ إن ربكم لرؤوف رحيم*(7)والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينةً ويخلق ما لا تعلمون*(8))) (النحل).

من أجل ذلك هيأ الأرض بما يلزمها من سبل الحياة التي يحتاجها الإنسان وسائر المخلوقات. ومن هذه السبل ، تلك الجبال الشامخة الراسية، التي شاءت قدرة المولى أن تكون لها فوائد ووظائف متعددة. فلنتخيل الأرض بلا جبال أو مرتفعات، كيف يمكن أن يكون شكلها ؟. بل وكيف يمكن أن تكون الحياة عليها؟. فقد حباها الله ميزات لتكون هبة للمخلوقات وعوناً لها في:

ا - في مجال السكن:

الأرض هي ذلك الكوكب المعروف بقطره وأبعاده، ويابسته ومائه، فلو زالت تلك الجبال وتلك التعرجات من مرتفعات ومنخفضات ، لضاقت الأرض بأهلها، وربما لم تتسع لسكانها.

[1] - انظر صفوة التفاسير .للصابوني.ج12/ص11.

فلو أخذنا جبلاً كمثال على ذلك، وليكن هذا الجبل:

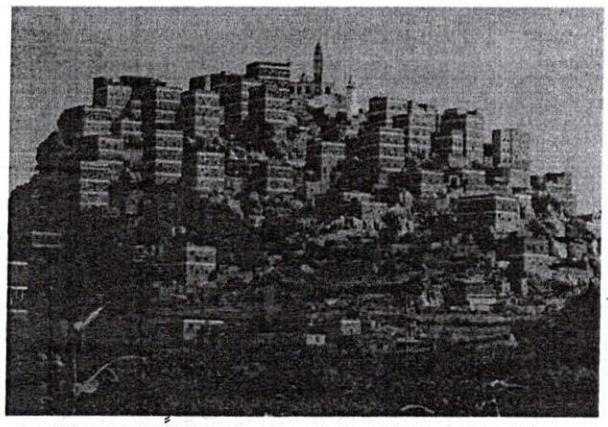

يقول تعالى: ((وَتنحِتونَ من الجِبال بيوتاً فارهين۞ فاتقوا الله وأطيعون۞)) (الشعراء:□□□□□□)

فلننظر إلى المساحة الإجمالية للجبل ، من أسفل الجبل في يمين الصورة ، صعوداً إلى قمته ونزولاً إلى أسفله من الجانب الأيسر للصورة، ومن جميع الجوانب للجبل ، وما تشتمل عليه هذه المساحة من بيوت .

فلو قُدّر لهذا الجبل أن يزول ، وبقيت مساحة القاعدة للجبل ، فكم تشكل هذه المساحة قياساً بمساحة الجبل من جميع سفوحه قبل الزوال ؟ ، وهل يمكن أن نقيم تلك المباني المنشأة على الجبل في مساحة القاعدة بعد الزوال ؟.

وقس على ذلك ،ما في الأرض من سلاسل جبلية تحتضن المدن الكبيرة والقرى والبيوت المنتشرة على سفوح الجبال وقممها وأوديتها . فلو قُدّر لتلك السلاسل أن تزول ،هل يتسع مكانها لتلك المدن والبيوت المنشأة عليها .

تلك هي قدرة الخالق ، شاءت أن يكون هذا الشكل للأرض حتى تتسع لما عليها من مخلوقات وإلا ما وجد البعض متسعاً أو مكاناً يأوي إليه .

رب مجادل يقول: بمقدرة الخالق أن يزيد في حجم الأرض ويجعلها بلا جبال فتتسع للمخلوقات. فنقول له: خلق الله كل شيء في هذا الكون بقدر محسوب بدقة. لعلمه أن هذا الحجم هو ما يجب أن تكون عليه، فربما لو زيد في قطر الكرة الأرضية متراً واحداً أو أقل من ذلك لكانت كارثة كونية، فلكل كوكب مساره (وكل في فلك يسبحون). لذلك قدر الخالق أن هذا الحجم للكرة الأرضية هو الحجم الذي يجب أن تكون عليه، وعوّضت المساحة بتلك المرتفعات والمنخفضات. ولو أزيلت لضاقت بأهلها .

ولهذا كانت الجبال معجزة من معجزات الخالق، ليس في تثبيت الأرض وحفظ توازنها كما نعرف في كثير من الآيات واضحة المعاني فحسب، وإنما لمثل تلك المعاني الخفية وغيرها من المعاني التي ستكشف عنها دراسات الباحثين وتأملاتهم.

ب ـ في مجال الرزق وسبل العيش:

مما لاشك فيه أن الزيادة في مساحة الأرض، والناتجة عن تلك الجبال والتعرجات، ينعكس على مل تشتمل عليه الأرض من أرزاق وخيرات. ففي مجال الزراعة مثلاً، تزداد المساحة المزروعة بالأشجار والزروع بأنواعها. فالمساحة المزروعة تبلغ أضعاف المساحة المتبقية لو قُدِّر أن زالت الجبال. وهذا يزيد في مساحة المراعي، وفي ذلك توسعة على المخلوقات الأخرى كالمواشي والأنعام ،حيث يستفيد الإنسان من منتجاتها . فلنتأمل صورة هذا الجبل .

أ

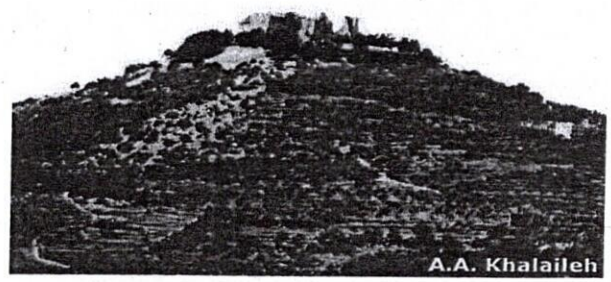

ب ج

ولننظر إلى الشكل (ا ب ج)، قمة الجبل (ا) ويمينه (ب) ويساره (ج)، وقدّر المساحة (ب ا ج) من جميع جوانب الجبل، وكم عليها من أشجار، فهل تتسع مساحة القاعدة (ب ج) إلى هذه الأشجار المزروعة على السفوح؟ وكم تشكل مساحة القاعدة قياساً بمساحة سفوح الجبل وقمته ؟. وقس على ذلك مساحة السلاسل الجبلية المنتشرة في أنحاء الكرة الأرضية، وما تشتمل

عليه من نباتات وأشجار ينتفع منها الإنسان والحيوان .وفي ذلك توسعة على المخلوقات في الرزق وسبل العيش.

وزيادة المساحة في سطح الأرض، يزيد في كمية مياه الأمطار التي تتلقاها تلك المسطحات، وكلما قلت مساحة اليابسة ، كلما قلت كمية الماء المستفاد منه. فلو أخذنا قطعتين من الأرض متجورتين، إحداهما متراً مربعاً واحداً، والأخرى ثلاثة أمتار مربعة، لوجدنا كمية الأمطار الساقطة على المساحة الثانية ثلاثة أضعاف الأولى. وقس على ذلك تلك الزيادة الكبيرة في مساحة الأرض الناتجة عن وجود الجبال.

ج ـ التنوع في تضاريس الأرض:

ومما يندرج في مجال التوسعة على المخلوقات، التنوع في تضاريس الأرض بسبب وجود تلك الجبال، مما ينتج عنه تنوع في مناخ الأرض، بين حرارة متدنية، ومرتفعة، ومعتدلة. ويتبع ذلك توسعة على المخلوقات في أرزاقها وسبل معيشتها.

فتنوع المناخ يؤدي إلى تنوع في النباتات بأنواعها، من أعشاب وزرع وأشجار. فكم من الأشجار لا تصلح زراعتها إلا في قمم الجبال والمرتفعات الباردة ؟ وكم منها لا تصلح زراعته إلا في المناطق الغورية والمنخفضات حيث الحرارة المرتفعة ؟ ومنها ما يناسبه السهول والمناطق المعتدلة في حرارتها وبرودتها.

فلو أخذنا على سبيل المثال أشجار العنب، والتفاح، والزيتون...، وغيرها كثير،لا تصلح زراعتها بشكل اقتصادي إلا في المناطق الجبلية الباردة. والحمضيات بأنواعها ،والموز...، بحاجة إلى أرض غورية منخفضة لدفئها. وأما المحاصيل الزراعية، من القمح، والشعير، والعدس، والفول...، وغيرها، فتكثر زراعتها في السهول المعتدلة في حرارتها. وغير ذلك من أنواع الأعشاب التي تصلح للرعي، والأشجار الحرجية كذالك ... وغيرها كثير.

ومن الجبال ما يشكل مصدات للرياح العاتية التي تتحطم على سفوحها لتحمي ما يُزرع في السهول من خلفها .وتساعد تلك المرتفعات على تساقط الأمطار وهي تلامس الغيوم المحملة الماء.

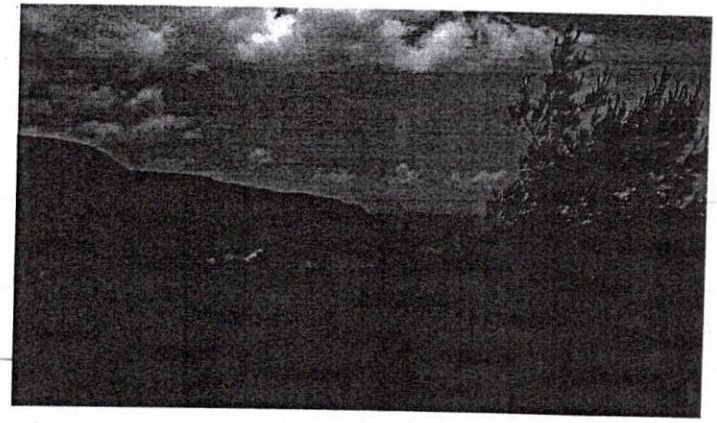

والانحدار الذي تكونه سفوح الجبال، يؤدي إلى انحدار الماء المتساقط عليها، ليكوّن تلك السيول التي تذهب لتروي ما يزرع في السهول والمنخفضات. إضافة إلى السدود المنشأة بين الجبال لتُملأ بمياه الأمطار القادمة من سفوح الجبال وقممها.

كل ذلك يأتي في باب التوسيع على مخلوقات الله سبحانه، بسبب التكامل الاقتصادي الناتج عن التنوع في تضاريس الأرض ومناخها. ولم يكن ذلك عبثياً أو عشوائياً، وإنما هي قدرة الخالق وإحكام صنعه في هذا الكون.

المبحث الثاني

التهذيب السلوكي للإنسان

مما لا شك فيه أن الله . سبحانه وتعالى . عندما أنزل القرآن على سيدنا محمد . صلى الله عليه وسلم . جعله يصب في خدمة الإنسان . فهو دستور للبشر، يعلمهم أمور حياتهم وتعاملهم، وينظم علاقاتهم ببعضهم، ينهاهم ويحرم عليهم ما فيه ضرر وفساد، ويحل لهم ما ينفعهم، ويأمرهم بما فيه مصلحتهم في الدنيا والآخرة، وينهاهم عما يفسد حياتهم.

فما يشتمل عليه القرآن من قصص ، وتهديد ووعيد ، وبيان لواجباتهم .....، وغير ذلك كله يصب في خدمة الإنسان ، ويعمل على تهذيب سلوكه . فالنهي والأمر، تهذيب للسلوك، وأخذ العبر من قصص الأمم السابقة، فيه فائدة سلوكية، وبيان الحدود والأحكام تهذيب للسلوك أيضاً.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مكانة الإنسان عند ربه، وإلا ما جعله خليفة له في أرضه.

ومما جاء من ذكر الجبال في تهذيب السلوك قوله تعالى:

((ولا تمشِ في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا.)) (الإسراء:37).

استُخدم أسلوب النهي في هذه الآية الكريمة بقوله: (لا تمش في الأرض مرحاً)، مع بيان تعليل النهي عندما قال: (لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال)،وفي هذا الأسلوب نهي عن فعل سيء وتوجيه إلى ما هو أفضل منه، ففيه دعوة إلى التواضع وعدم التكبر على الآخرين، وفي هذا تهذيب للسلوك الإنساني بعد أن بين له حجمه وقدرته في هذه الأرض.

كيف له أن يتكبر وهو لم يبلغ من القوة ما بلغته الجمادات من حوله. وهل بتكبره واختياله يمكنه أن يشق الأرض من تحت قدميه ؟، وهل يبلغ من الطول والعظمة ما تبلغه الجبال من حوله.

فلتعتبر أيها المتكبر، وعُد إلى صوابك ورشدك، بتواضعك في السلوك والتعامل.

وفي هذا تهكم وتقريع وتأنيب لتلك الفئة المتكبرة من البشر، وفيه تهذيب للسلوك وتربية للنفس الإنسانية المتعالية[1].

[1] - انظر صفوة التفاسير . ج7 ، ص59 .

فلينظر الإنسان من حوله إلى تلك الجبال الشامخة الراسية، ولينظر إلى الأرض الواسعة الثابتة، علها تكون عبرة له، ودرساً ينفعه في معرفة حجمه وتأثيره في تلك المخلوقات التي تحيط به.

وهذا يذكرنا بقول الشاعر إيليا أبو ماضي :

نسي الطينُ ساعةً أنه طـ ـنٌ حقيرٌ فصال تيهاً وعربدْ

وكسا الخزُّ جسمَه فتباهى وحوى المالَ كيسُه فتمـرَّدْ

يا أخي لا تمل بوجهك عني ما أنا فحمـةٌ ولا أنت فرقـدْ [1].

والمتأمل في الآية(68 من سورة النحل) . والتي سنتحدث عنها في الفصل الثالث . يجد فيها من معاني التربية السلوكية ما يمكن الاستفادة منه في مجال تربية الأبناء.

((واذْكُروا إذْ جَعَلَكُم خلفاءَ من بعد عادٍ وَبَوَّأكُم في الأرضِ تتَّخذون من سُهولها قُصوراً وَتَنْحِتُون الجبالَ بيوتاً فاذْكُروا آلاء الله ولا تَعْثَوْا في الأرض مُفْسِدين .))(الأعراف:74).

ورد ذكر الجبال في الآية الكريمة في معرض دعوة صالح . عليه السلام . ثمود إلى الإيمان بالله وعبادته وحده ، مذكراً إياهم بما امتنَّ الله عليهم من فضله أن جعلهم خلفاء في الأرض من بعد عاد،بلاإضافة إلى غيرها من النعم التي لا تُحصى .

[1] - ديوان إيليا أبو ماضي.

ثم يأتي التوجيه الرباني أن ألهمهم المعرفة في كيفية السكنى، حيث اتخذوا قصوراً لهم في السهول وبيوتاً في الجبال .

وهذا يستوقفنا عند قوله تعالى: (تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً) .

ففي هذا توجيه وإرشاد لهم أن يستفيدوا من السهول والجبال، ولكن كيف يكون ذلك ؟ ، وما حاجة ثمود إلى البيوت في الجبال وقد نعموا في سكنى القصور الفخمة في السهول؟. وفي هذا يقول ابن عباس : ((القصور لمصيفهم والبيوت في الجبال لمشتاهم ، وقيل نحتوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم، كان الرجل يبني البنيان في السهول فتمر عليه مائة سنة فيخرب، ثم يجدده فتمر عليه مائة سنة فيخرب...، فأضجرهم ذلك فاتخذوا الجبال بيوتاً.))[1] .

وفي هذا الحديث، تبرير جميل لاتخاذهم القصور في السهول والبيوت في الجبال . ولكن ذلك لا يمنع أن نقف ملياً عند الآية الكريمة، ونفرّق بين القصر والبيت، وربما نستفيد معان أخرى.

فالقصر كما نعرف يبرز فيه فن العمارة ، وزركشة بأشكال البناء ، تصلح للرفاه ، وتعبر عن سعة في العيش . وأما البيت ، فهو كل ما يسكنه الإنسان أو الحيوان ، ولذلك هو مأوى ليس من الضرورة أن يبرز فيه الفن، ربما يكون من الحجر ، أو الطين ، أو سعف النخل ، أو الشَّعر...،أوغير ذلك . وربما لا يعبر عن سعة في العيش أو الرفاه .

[1] - البحر المحيط . أبو حيان الأندلسي . 4 / 329 .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن ثمود ، منهم من سكن القصور في السهول، ومنهم من سكن بيتاً ينحته في الجبل ، كل حسب مقدرته وإمكاناته.

إضافة إلى ذلك ،يمكننا القول أن الآية الكريمة ، فيها توجيه وإرشاد لثمود وغيرهم من الأمم اللاحقة أن يستفيدوا من جوانب الأرض المختلفة ، فليسكنوا في القصور الجميلة أوقات السعة ، والتوجه إلى سكنى الجبال أوقات الشدة إذا ما داهمهم خطر ما ،فتكون الجبال حصناً أكثر منعة من السهول.

وفيها أيضاً تذكير بما أنعم الله عليهم من سعة في العيش ، وفي ذلك حفز لهم على شكر الله وطاعته والابتعاد عن الجهل والفساد . وهذا توجيه وتهذيب تربوي سلوكي لهم.

وما ينطبق على ثمود ينطبق على غيرهم من الأمم اللاحقة إلى يومنا هذا. فلنحمد الله على ما أنعم علينا ، ووسع لنا في رزقنا ومعيشتنا. فكم من من ينعم بأكثر من بيت ؟. ومنا من ينعم بأكثر من عربة، وأكثر من زوجة. فحق أن نذكر هذه النعم ونحمد الله عليها.

وفي قوله تعالى: ((أَتُتركون في ما هاهُنا آمنين * في جنت وَعُيون * وَزُروع ونخلٍ طلعُها هَضيم * وتنحِتون من الجبال بيوتاً فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تُطيعوا أمرَ المُسْرِفين *)) (الشعراء: 146. 151).

قال بعض المفسرين : كانت أرض ثمود كثيرة البساتين والماء والنخل ، فذكّرهم أخوهم صالح . عليه السلام . بنعم الله الكثيرة ، من بساتين وجنات وتفجير لعيون الماء ، وكثرة الزروعوالثمرات[1]. فقال لهم أتحسبون أنكم باقون مخلدون في هذه الدنيا تتمتعون بهذه الخيرات؟.

فالمتتبع لأحداث وقصص القرآن الكريم ، يمكنه أن يربط بين هذه الآية والآية (74 من سورة الأعراف) سابقة الذكر .

ففي الآية السابقة يقول تعالى : (وتنحتون الجبال بيوتاً)، وقد تحدثنا عنها في موضعها.

ولكن في الآية التي نحن بصددها ، يقول عز وجل: (وتنحتون من الجبال بيوتاً).حيث أجمع معظم المفسرين على التوافق في المعنى بين الآيتين الكريمتين، في اتخاذ بعض البيوت في الجبال . ولكن هذا لا يمنع أن نستفيد معانٍ أخرى تُضاف إلى ما ذكره المفسرون .

نلاحظ في الآية الأولى قوله (تنحتون الجبال بيوتاً) ، وهذا مؤشر إلى أن الجبل يُنحت حتى يتكون منه الكهف (البيت) الذي يُسكن . وأما الآية الثانية فجاء قوله تعالى (وتنحتون من الجبال بيوتاً)،حيث يُفهم من حرف الجر (من) التبعيض، أي تنحتون بعض الجبال بيوتاً. ويُفهم منها كذلك أن النحت يكون في الحجر، ومعنى ذلك أن الحجارة التي تُستخرج من الجبال أثناء النحت، تُبنى منها تلك القصور الشامخة في سهولهم كما ورد في الآية السابقة.

وبذلك يكون قوم ثمود قد استفادوا من النحت في غرضين:

[1] - انظر صفوة التفاسير . ج /10 ص /71 .

الأول: تكوين وتشكيل الكهوف والمغاور التي تُسكن في هذا الجبل.

الثاني: أخذ الحجارة المستخرجة لاستخدامها في بناء القصور الجميلة.

ثم يدعوهم صالح . عليه السلام . إلى تقوى الله وطاعته، وعدم طاعة واتباع المسرفين المفسدين.وفي ذلك تهذيب للسلوك ، وتربية للنفس الإنسانية.

فعندما أحست ثمود بالكبرياء والقوة والقدرة على نحت تلك الجبال، واتخاذ البيوت فيها- وهي صخور قاسية ربما تصعب على غيرهم من البشر - ذكّرهم صالح بأن تلك القوة وتلك النعم التي ينعمون بها، ما كانت أن تكون لولا إرادة الله سبحانه . فأمرهم أن يعودوا إلى رشدهم وصوابهم ، وأن يتقوا الله ويطيعوه ، ولا يطيعوا أمر المسرفين المفسدين.

وفي هذا دروس في التربية والتعليم، وتهذيب للعقل والسلوك، ودعوة إلى التواضع والاعتراف بفضل الله - سبحانه وتعالى - عليهم.

فتطويع الجبال الراسية الشامخة الصلبة للإنسان، سبيل من السبل التي سخرها الله لهذا المخلوق العاقل ، كي تعينه في حياته ، وتكمل عليه النعم التي أرادها الله له. إضافة إلى أنها اختبار للإنسان في كيفية استخدام المخلوقات لخدمته، ومدى اعترافه بفضل الله عليه، عندما يطوع له هذه الجبال الصلبة ، ويمكنه في هذه الأرض .

المبحث الثالث

التمتع بما تشتمل عليه الجبال من نعم

((وأوحى ربُّكَ إلى النحلِ أن اتَّخذي من الجبال بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجر ومما يَعرِشُون *ثمَّ كُلي من كلّ الثمراتِ فاسلكي سُبُلَ ربّك ذُلُلاً يخرج من بُطُونِها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيهِ شِفاءٌ للناسِ إنّ في ذلك لآية لقومٍ يتفكرون)) (النحل :68، 69) .

ومن آيات قدرة الله . سبحانه . وحكمته ، أن ألهم النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً لها . وفي استخدام كلمة البيوت (استعارة تصريحية) ، للدلالة على الأوكار والشقوق التي يقيم بها النحل موطنه .

وعندما استُهلت الآية بقوله (وأوحى) ، فالإيحاء يعني الإلهام والتعليم، على وجه هو تعالى أعلم بكيفيته ، ولا سبيل للإنسان أن يقف على حقيقة معرفته[1].

أما عن اختيار النحل للجبال تتخذ منها بيوتاً ، ففي تقديرنا أن ذلك راجع إلى ما للجبال من فضل ومكانة تتميز بها عن سائر تضاريس الأرض وذلك في:

1 ـ أنها تتميز بالمنعة والحصانة ، فهي أعصى على الأعداء من البقاع الأخرى.

[1] ـ انظر البحر المحيط . أبو حيان الأندلسي . 5 /511 .

2 ـ ولما فيها من الخيرات الكثيرة . فهي المرتفعات من الأرض ، يكثر فيها السحاب والأمطار، وهذا طبيعي أن ينعكس على الخيرات التي تنبت بسبب الماء ، وفي ذلك رزق للنحل، يقطف من أزهارها ما يشاء ، فيخرج ذلك الشهد الذي أصبح دواءً للإنسان.

3 ـ والإيحاء للنحل ، لم يكن ذلك مرتبطاً ببناء البيوت فحسب، وإنما في كيفية بناء هذه البيوت. فقدرة الله علمت هذه الحشرة الصغيرة كيف يكون شكل البيت، هذه البيوت المكونة من أشكال هندسية سداسية، منتظمة في أضلاعها، لا يزيد بعضها على بعض، إنما يدل على تلك القدرة العجيبة، وذلك الفن الرهيب الذي تميزت به النحلة[1]. ناهيك عن تنظيم العمل المتقن لتلك المملكة التي لا مكان فيها لمتقاعس، ولا مجال للخروج عن الخطة المرسومة لكل من يعيش فيها.

فحديث الآية عن الجبال وما تميزت به من منعة ، وكثرة في خيراتها وخصوبتها، إضافة إلى كيفية إلهام النحل أن يختار من هذا المكان وطناً له ، وما تميز به العمل المتقن، كل ذلك يؤكد ويبين القدرة الإلهية على عظائم الأمور فيما يشتمل عليه هذا الكون من أسرار.

وما يمكن استنتاجه من دلالات هذه الآية الكريمة ، عندما ألهم الله النحل أن يتخذ من الجبال بيوتاً ، حتى يكون في ذلك عبرة وقدوة مفيدة للإنسان، أن يتخذ من تلك السلاسل الجبلية مكاناً يستفيد منه في عيشه ورزقه.

[1] ـ انظر التحرير والتنوير . 14 / 205 .

ففعل الأمر (اتخذي) ، موجه إلى النحل ظاهراً ، وفي ثناياه توجيه للإنسان أن يستفيد من خيرات الجبال ، خصوصاً أنه يعلم أن النحل لا يتوجه إلا إلى مكان يتميز بخصوبته، وتكثر فيه الخيرات . فمن باب أولى أن يستفيد الإنسان منها.

ولا يفوتنا ما يشتمل عليه هذا الأسلوب القرآني من معان في التربية السلوكية للتعليم فجاء التعليم للإنسان غير مباشر، ليكون درساً لنا في تعليم غيرنا من خلال القدوة والاقتداء.

ومن الأساليب البلاغية المستخدمة في الآيات (التورية) وهو فن من فنون علم البديع الذي عرفه زكي الدين بن أبي الإصبع في كتابه (تحرير التحبير) بقوله: ((أن يحتمل الكلام معنيين فيستعمل المتكلم أحد احتماليه ويهمل الآخر ومراده ما أهمله وليس ما استعمله)).وهذا المعنى نجده عند القزويني وصلاح الدين الصفدي وتقي الدين الحموي وعبدالعزيز عتيق، وغيرهم[1].

وفي هذا تأكيد لما ذكرته سابقاً، في توجيه الأمر إلى النحل ظاهراً، ولكن المعنى الخفي والمقصود، توجيه للإنسان الذي هو أولى من الحشرة بالاستفادة من خيرات الجبال.

((واللهُ جَعَلَ لكُم ممَّا خلقَ ظلالاً وَجَعَلَ لكُم من الجبالِ أكْناناً وجعل لكم سرابِيلَ تقيكُم الحرَّ وسرابيلَ تقيكُم بأسَكم كذلك يُتمُّ نِعْمَتَهُ عليكم لعلكم تُسْلِمون .)) (النحل : 81) .

[1] - انظر خزانة الأدب لابن حجة الحموي . ص239 وما بعدها.

وانظر علم البدي . عبدالعزيز عتيق.ص 114.

هذه الآية الكريمة جاءت في معرض الحديث عن نعم الله الكثيرة التي أنعمها على الإنسان، ومنها هذه الظلال التي يلجأ إليها الناس أوقات الحر، وتلك البيوت والكهوف التي تقيه أيضاً من الحر والقر.

فقد أشار المفسرون إلى أن بلاد العرب تميزت بحرها الشديد، ولذلك جاءت الآية الكريمة تذكرهم بتلك النعم، وتذكرهم بفضل الله عليهم[1].

هذا صحيح ولكن لا بد أن نتذكر أن القرآن يخاطب الناس كافة في كل زمان ومكان إلى يوم الدين، فلم يوجه الحديث للعرب وحدهم،فكيف يوجه الحديث وجزيرتهم العربية أقل البلاد أشجاراً وظلالا؟.

وأما في قوله تعالى: (وجعل لكم من الجبال أكنانا)، فهو البديل لمن لا يجد ظلاً من الشجر أن يستظل تلك الكهوف التي تُصنع في الجبال، خصوصاً أن العرب في مكة . مهد الإسلام . تحيط بهم الجبال قليلة الأشجار، كثيرة الكهوف. فمن وجد أشجاراً يستظل بها فلا بأس، ومن لم يجد فيمكنه الاستفادة من الكهوف والبيوت في الجبال.

وهذا لا يعني أن ننتقص مما قاله المفسرون، ولكنها إضافة حتى لا يضن البعض أن تلك الآية موجهة إلى فئة معينة من البشر.

فالآية الكريمة تشير إلى فوائد ثلاث هي:

[1] - التفسير الكبير للرازي. 93/20.

*. الاستفادة من الظل وقت الحاجة إليه.

*. الاستفادة من البيوت أياً كانت، كهفاً طبيعياً أو بيتاً مبنياً لأن فيه سكن واستقرار.

*. الاستفادة من سبل الحماية والوقاية التي تقينا بأسنا.

ولا تفوتنا الإشارة إلى ما تشتمل عليه الآية من توجيه وتعليم للإنسان أن يستخدم سبل الوقاية والحماية التي تعمل على أمنه وحمايته من:

*. أعدائه وخصومه، بصناعة ما يفيده من الدروع وسبل الحماية.

*. الحر الذي يُعتبر عدواً له إذا لم يتق شره بالاستفادة من الظل.

*البرد القارص والسيول الجارفة والوحوش الضارية باستخدام البيوت.

كل ذلك يعد من النعم التي أنعم الله علينا. فالنعمة الحقيقية التي أرادها الله للإنسان تتمثل في(راحته وأمنه)، وما هذه المخلوقات المتواضعة في نظرنا، إلا سُبُلاً لتحقيق النعمة المرجوة، وتبعث على الاستقرار النفسي والجسمي حتى يتفرغ لعبادة الله وشكره على ما أنعم عليه.

الخلاصة:

من خلال التأمل في بعض الآيات التي تتعرض لذكر الجبال، استوقفتني بعض المعاني التي لم أجد لها ذكراً في كتب التفسير ومنها:

أولاً: إن وجود الجبال يؤدي إلى زيادة في مساحة الأرض، وهذه الزيادة ناتجة عن تلك التعرجات الموجودة في سطح الكرة الأرضية.

ثانياً: تؤدي تلك الزيادة إلى التوسعة على المخلوقات في:

*. التوسعة في السكن.

*. التوسعة في الأرزاق وسبل العيش.

ثالثاً: لولا وجود تلك الجبال والمرتفعات لما صلحت الأرض للحياة لأنها ستغمر بمياه البحار والمحيطات.

رابعاً: وجود تلك المرتفعات والمنخفضات والسهول، أدى إلى تنوع في المناخ، مما تبعه تكامل في أنواع الزراعة وأسباب الحياة.

وهكذا أراد الله بعلمه وقدرته أن يكون هذا الكوكب الأرضي بهذا الحجم وهذا الشكل حتى تصلح الحياة عليه.

هذا والله تعالى أعلم

نسأله العلم والمعرفة

من المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2
3. ابن حجة الحموي: خزانة الأدب وغاية الأرب، دار مكتبة الهلال/2003.
4. الإمام فخر الدين الرازي: التفسير الكبير. دار الكتب العلمية. بيروت.
5. عبدالعزيز عتيق: علم المعاني. دار النهضة العربية. بيروت. 1974م.
6. محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير. دار القرآن الكريم. بيروت.ط1.
7. محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير: الدار التونسية للنشر. تونس.
8. محمد فؤاد : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. دار الجيل. بيروت.